العرب
alarab.co.uk
أول صحيفة عربية يومية تأسست في لندن 1977
الاربعاء 31 مايو/ايار 2017، العدد: 10649

عبدالرزاق الساحلي صاحب الألغاز المحيرة

رسوم التشكيلي التونسي لا تزال تكتظ بلغزية ما تصوره، حتى العلامات التي يراها المرء في أسواق الحمامات تكتسب طابعا لغزيا حين تظهر على سطوح لوحاته.

العرب فاروق يوسف [نُشر في 2016/12/18، العدد: 10489، ص(10)]

عبدالرزاق الساحلي رسام المحيط الجمالي المجاور

لندن - من اليسير أن تراه من خلال رسومه. لكن حين تذهب إلى مدينته تقترب من جوهر حكايته. تمشي كما لو أنه يمسك بيدك ويقودك إلى مرجعياته البصرية. يفتح أمامك أبواب حديقته. أشكاله ومواده وتقنياته هناك تنتشي برسومه وهي تعود إلى أماكنها الأصلية، لكن بخيال مختلف، هو خياله الذي حلّق بالأشياء

العرب
alarab.co.uk
أول صحيفة عربية يومية تأسست في لندن 1977
الاربعاء 31 مايو/ايار 2017، العدد: 10649

والأصوات والحكايات وأضفى عليها طابعا حلميا.

الحمامات بتونس، التي هي ملعب طفولته وصباه وشبابه وكهولته، هي الملعب الخيالي لأفكاره عن الصورة التي تكتظ برموز وعلامات، يلذّ للعين أن تراها مجرّدة من معانيها، غير أن تلك المعاني إن حضرت لا تفقد الصورة سحرها الكامن الذي حملته يد الرسام إليها من جهة مجهولة. هو ابن بيئته بالقوّة نفسها التي هو فيها ابن شغفه الحداثوي بالرسم.

اعتبره الكثيرون وسيطا بين رسم قادم من أوروبا وتقاليد شعبية لا تزال أسواق الصناعات الحرفية تعج بها. غير أنه ليس كذلك تماما.

فنه هو الوجه الآخر للحداثة. فالحداثة الفنية التي وجدت في بداياتها في الفنون الأفريقية واحدا من أعظم مصادرها أعادها عبدالرزاق الساحلي إلى رشدها حين استدرجها إلى أفريقيا، وبالضبط إلى مدينته ليضعها في مواجهة الحقيقة الجمالية التي غاب جزء كبير منها بسبب هيمنة روح الانتقاء التي طغت على التجارب الأولى لفنانيها الكبار.

الساحلي يمزج الخزف برموزه التجريدية بالشعر الذي هو أكثر شفافية من أن يُرى. عالمه الشعري يحضر غاصا بالتمتمات المستعارة من رمزية العلامات التي تتساقط من أيدي الحرفيين مثل زبد الحديد.

العرب
alarab.co.uk
أول صحيفة عربية يومية تأسست في لندن 1977
الاربعاء 31 مايو/ايار 2017، العدد: 10649

ترى لوحة الساحلي فتظن أنك تسمع أصواتا. تلك الأصوات التي تنبعث من اللوحة هي ما لم يكن الساحلي يستغني عنه في حياته اليومية. كان يرى لينصت إلى ما لا يسمعه الآخرون من أصوات. لوحة الساحلي هي حفلة موسيقيين قادمين من أزمنة سحيقة. لقد تعلّم الساحلي أن يرتجل أصواتا حين يرسم.

المقيم في نقوش مدينته

رسوم تظهر العالم على هيئة متاهة لانهائية تسكنها الألغاز

ولد عبدالرزاق الساحلي عام 1941 بالحمامات بتونس. تخرّج في مدرسة الفنون الجميلة عام 1969. ذهب بعدها للإقامة في مدينة الفنون بباريس. فتحت تلك الإقامة أمامه أبواب جامعة باريس التي درس الرسم فيها بين عامي 1971 و1974 ثم درس فن الحفر في المدرسة الوطنية للفنون الجميلة.

العرب
alarab.co.uk
أول صحيفة عربية يومية تأسست في لندن 1977
الاربعاء 31 مايو/ايار 2017، العدد: 10649

في ثمانينات القرن الماضي عاد إلى باريس ليخوض تجربة الفوتوغرافيا، في محاولة منه لتجسير الصلة بين الصورة والكتابة. يومها اهتدى إلى الشعر فصار يكتبه، لكن مستعينا بتقنيته في الرسم.

التفكيكي في الرسم كان تفكيكيا في الأشعار التي كتبها وهو يسعى إلى استحضار الأصوات التي كانت تتصادم في أعماق روحه. وهي أصوات لم يستعرها من مكان بعيد بل كان يلتقطها من محيطه الذي شكّل مفردات سيرته الشخصية والجمالية في الوقت نفسه.

هذا رسام وجد في النقوش الخزفية ما يعيده إلى حياته الحميمية. صارت تلك النقوش من خلال رسومه كائنات حية، يسلّيه أن يراها قد تمكنت من حقائقها الجمالية وهي مرسومة في عالم بعيد عن عالمها الأصلي. يرسم ابن الحمامات مدينته بالطريقة التي تتماهى من خلالها بقوتها الداخلية الآسرة.

العرب
alarab.co.uk
أول صحيفة عربية يومية تأسست في لندن 1977
الاربعاء 31 مايو/ايار 2017، العدد: 10649

غير مرة أقمت في الحمامات. غير أنني بعد أن رأيت رسوم الساحلي صرت أنظر إليها بطريقة مختلفة. لقد فكّك الرسام مشاهد مدينته البحرية وأعاد تركيبها من جديد، مستعينا بالإشارات والرموز التي سكنت ذاكرته فصارت مادة لخياله الذي وهبها حياة ثانية. كم هو ضروري الرسام بالنسبة إلى علاقتنا بالواقع.

فالساحلي لا يصف في رسومه ما نراه من مدينته بقدر ما يضع أمامنا روح تلك المدينة التي أسلم الروح فيها عام 2009. على الساحل، في المدينة القديمة تقع قاعة العرض التي تحمل اسمه. تلك القاعة هي بمثابة تحيّة لذلك الرسام الذي وضع المدينة على خارطة الجمال العالمي.

العرب
alarab.co.uk
أول صحيفة عربية يومية تأسست في لندن 1977
الاربعاء 31 مايو/ايار 2017، العدد: 10649

الرسم باعتباره فعل معرفة

هل أراد الساحلي أن يعلن عن هويته من خلال لجوئه إلى استعمال العلامات المحلية؟

احتفاء بالنقوش والعلامات التي زينت أحوال تراث تونس والحمامات

نخطئ حين نحصره في ذلك المجال الذي يغلب عليه البعد العقائدي. ذلك افتراض يتناقض مع المنحى الشعري الذي تماهت معه تجربة الفنان، وهو يستعيد العلامات كما لو أنه يتعرّف عليها في كل مرة يرسمها.

ربما لأنه يعيد صياغتها شكليا بعد أن يهبها شحنة تعبير جديدة. فما لم يخفه ذلك الرسام أن شغفه بالعلامات هو جزء من اللعبة وليس اللعبة كلها. لا نرى العلامات إلا جزءا من

العرب
alarab.co.uk
أول صحيفة عربية يومية تأسست في لندن 1977
الاربعاء 31 مايو/ايار 2017، العدد: 10649

عمل، هو في حقيقته نوع من المحاولة البصرية الجديدة التي يكمن هدفها في إعادة التفكير في العالم جماليا. كما أن تفكيك العلامات هو الآخر لم يكن هدفا لذاته.

كان ذلك الفعل جزءا من عملية تفكيك العالم من أجل التعرف على حقيقته من خلال الرسم. وهي مهمة سعى الساحلي إلى التصدي لها، لا من أجل إعادة اكتشاف العالم فحسب بل وأيضا إثراء عالم الرسم بالأساليب المستلهمة من قدرته على التنويع والاتساع والتجدد، تماهيا مع مفهومه الذي لا يمكن لأيّ معنى من معانيه أن يحتكره وحيدا.

إثراء عالم الرسم بالأساليب المستلهمة

وهنا بالضبط تكمن واحدة من أهم خصائص فن الساحلي. فالرسام الذي أعاننا على اكتشاف مواقع جمالية جديدة في المحيط (الطبيعة والبيئة على حدّ سواء) كان في الوقت نفسه

العرب
alarab.co.uk
أول صحيفة عربية يومية تأسست في لندن 1977
الاربعاء 31 مايو/ايار 2017، العدد: 10649

ينقّب في مناطق جديدة ومجهولة، يكشف فيها الرسم عن قدرته على الإبهار وصنع معجزاته الجمالية الصغيرة. في حقيقته فإن الساحلي لم يكن يولي المشكلات الفكرية أيّ اهتمام يُذكر.

الرسم من وجهة نظره محاولة لاختراق ما يُرى من الشيء إلى ما لا يُرى من ذلك الشيء. وهو في ذلك إنما يخلص إلى وظيفته رسّاما. في سياق تلك المحاولة فإنه وجد في العلامات التي تشكل جزءا من سيرته البصرية والعاطفية ما يعينه على اكتشاف البعد الخفي لفعل الرسم. نحن نرسم لكي نتعرف من جديد على أنفسنا، لكن من خلال ما نراه.

لفنان وألغازه المحيرة

مَن يعرف تونس جيدا لا بد أن يكون على يقين وهو يرى رسومه من أن الساحلي كان واحدا من أكثر فناني تونس استيعابا للمزاج التونسي. كانت تونس حاضرة دائما وبقوة

العرب
alarab.co.uk
أول صحيفة عربية يومية تأسست في لندن 1977
الاربعاء 31 مايو/ايار 2017، العدد: 10649

في تلك الرسوم الأخّاذة، بالرغم من أن رسّامها كان حذرا في الاستجابة لعاطفته المباشرة. لا تزال رسومه تكتظ بلغزية ما تصوره. حتى العلامات التي يراها المرء في أسواق الحمامات تكتسب طابعا لغزيا حين تظهر على سطوح لوحات ذلك الرسام الذي سعى إلى إظهار العالم على هيئة متاهة لانهائية، تسكنها الألغاز.

ألاّ نفهم شيئا مما نراه من رسومه هو حجة الساحلي على نجاحه في حيلته الفنية. فالساحلي لا يرسم لكي يهبنا معلومة، حتى وإن تعلق الأمر بالجمال، بل يرسم من أجل أن يخرجنا من عزلاتنا الفردية. الخرائط التي تضعها الساحلي أمامنا تتشعّب دروبها فنضيع في حالة من الهذيان البلاغي الذي كان الساحلي نفسه قد استلهمه في أشعاره.